

تاريخ وحضارة الدولة الزيانية (633-962هـ/1235-1554م)

تمهيد: تتفق المصادر التاريخية في أن بني عبد الواد قبائل رحل ذات أصل زناتي، وأنهم كانوا بدوا رحلا يجوبون صحراء المغرب الأوسط ووصلوا في ترحالهم إلى غاية المغرب الأقصى خلال العهد المرابطي، وخلال القرن 7هـ/13م أقطعهم الموحدون بلاد بني يلموي وبني وامانو فقيوت عصبيتهم وصاروا يتطلعون للسيطرة على المغرب الأوسط وكانت لهم عدة بطولات في تاريخ المغرب الإسلامي.

1- ظروف وعوامل قيام الدولة الزيانية:

بدأ الضعف يدب إلى جسد الدولة الموحدية بعد وفاة الخليفة يوسف المستنصر، حيث أصبح على رأس الدولة أكثر من خليفة، واضطر كل خليفة إلى الإستنجاد بعناصر من قبائل الموحدين والعرب وحتى النصارى مما ساعد على اضمحلال الدولة نتيجة الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة، وقد أدى ذلك الضعف إلى تدهور أحد ركائز الدولة والمتمثل في الجيش الذي كان في عهد قريب يتوج بانتصارات فتوحاته في المغرب الإسلامي والأندلس، وبعد توالي الهزائم على الدولة الموحدية بعد معركة (العقاب) سنة 609هـ/1212م، لم يتبق من عمرها إلا القليل حتى كان سقوطها الفعلي سنة 668هـ/1269م، وظهرت بعدها أربعة دويلات: الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، والدولة الحفصية بالمغرب الأدنى، والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط، ومملكة بني الأحمر بالأندلس.

2- إرساء أسس وقواعد الدولة الزيانية:

عرف يغمراسن بن زيان بين قومه بالدهاء السياسي نتيجة ارتباطه بالخلافة الموحدية بمراكش، ثم انفصل عنها فيما بعد وأراد أن يؤسس لنفسه دولة خاصة به تقوم على أكتاف قبيلة بني عبد الواد، غير أن مطامع الدولة الحفصية في المغرب الأدنى صعبت من مهمته، إذ كانت سياسة التوسع على حساب الدويلات المتاخمة أمرا شائعا، لقد بوع يغمراسن بن زيان سنة 633هـ/1235م وهو في عز شبابه، وكان من أشد سلاطين بني زيان حرصا على كسب الود وتحسين علاقاته مع قبائل المغرب الأوسط، كما أنه اتخذ تلمسان عاصمة لدولته الناشئة، وانتقى جيشا من قبائل زناتة وأضاف إليه عناصر مختلفة من الروم والأغزاز، وأنشأ في جهاز حكمه مجلسا وزاريا، كما اختار لديوانه بعض الأندلسيين المهاجرين حيث قربهم إليه، وأجلسهم في مجلسه مستخدما بذلك مظهرا من مظاهر الملك والسلطة.

لقد برزت الدولة الزيانية إلى الوجود وسعت إلى تكوين عصبية خاصة بها من خلال توحيد القبائل، فمنذ البداية سعى شيوخ قبيلة بني عبد الواد في تحقيق تلك المهمة، فقد عمل يغمراسن بن زيان على تقوية علاقته بالقبائل المجاورة له والتعاون معهم، فاستقدم قبيلة بني عامر من أوطانهم في شرق البلاد وأقطعهم أراضي حول تلمسان بغرض مساعدته في حماية الدولة فكانوا بمثابة درع واق من الهجمات الخارجية، وقد أجزل لهم العطاء والأموال وخصص لرؤسائها رواتب معتبرة حفاظا على ولائهم وطاعتهم له، أما قبائل بني حميان فقد أقطعهم

أراضي في الصحراء في جنوب غرب تلمسان لتكون حصنا منيعا ضد خطر بني مرين، وهناك بعض القبائل التي تم إخضاعها بالقوة والمطاولة مثل قبائل: مغراوة، بنو توجين، مليكش، وقد فرضت الدولة الزيانية على هذه القبائل بعض الضرائب مقابل منحهم بعض الإستقلالية في تسيير شؤونها الداخلية.

3- حدود الدولة الزيانية:

نظرا لطبيعة موقع الدولة الزيانية بين الدولة المرينية في المغرب الأقصى والدولة الحفصية في المغرب الأدنى، فطبيعي أن يكون التوسع في المجال الجغرافي ضربا من الوهم وغاية في الصعوبة، وبهذا كان صعبا عليها أن توفر لنفسها المجال الجغرافي، إذ أن جزء كبيرا من شرق المغرب الأوسط (قسنطينة، عنابة، بسكرة، تڤرت) كان تحت سيطرة الدولة الحفصية، واكتفت هي بالجزء الغربي والأوسط من المغرب الأوسط متخذة في ذلك تلمسان عاصمة لها، في حين أن المرينيين كانوا هم الآخرين في صراع مستمر ودائم وفي حرب سجال مع الدولة الزيانية من أجل بسط نفوذها على الأراضي المتاخمة لها، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك في عدة مرات حيث وصلت الجيوش المرينية إلى تونس والزاب وقسنطينة، كما وصلت الجيوش الحفصية إلى المدية ومليانة وتلمسان.

وقد لخص الحسن الوزان هذه التوسعات قائلا: "وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة، غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس، الذين احتلوا تلمسان نحو عشرات المرات حسبما جاء في التاريخ، وكان مصير ملوك بني زيان حينئذ إما القتل أو الأسر أو الفرار إلى المغارات عند جيرانهم العرب، وتعرضوا أحيانا أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس".

4- أزهى فترات دولة بني زيان:

يجد الدارس لتاريخ الدولة الزيانية أنها مرت بمراحل متباينة غير أن مايمينا في هذا المقام هو عصرها الذهبي الذي ارتسمت فيه معالم الدولة وشهد تطورا ملحوظا في شتى الميادين السياسية والعلمية الثقافية والاقتصادية وغيرها...، وسنأتي في هذه الأسطر على ذكر ثلاث سلاطين على سبيل المثال لا للحصر، إذ أن صفحات هذا البحث لا تكاد تكفي للتأريخ لهذه الدولة.

✓ **السلطان يغمراسن بن زيان (633-681هـ/1235-1282م):** وهو مؤسس هذه الدولة وقد سبق الحديث عنه آنفا بالإضافة إلى تأسيسه الدولة الزيانية وجامع كيائها وتحصين عاصمتها تلمسان، نجد أنه قد إهتم بالحركة الفكرية من خلال اعتماده على العناصر المهاجرة من الأندلسيين، ومن مدن المغرب الأوسط كتنس مثلا.

✓ **ب- السلاطان أبو تاشفين الأول (718-737هـ/1318-1337م):** تعد فترة حكمه طويلة بالمقارنة بالفترات التاريخية التي حكمها الأمراء المتأخرون، ولقد قضى جل فترة حكمه في تعمير البلاد وبناء القصور والحصون، والقلاع وتشجيع النشاط العلمي والثقافي باستقباله لمجموعة من رجال الفكر، وإهتم بالجانب المعماري الثقافي فقام ببناء "المدرسة التاشفينية" التي جلب إليها أمهر الفنانين والمهندسين

وولى أبي عمران بن موسى المشدالي التدريس بها، واهتم بالجانب الإقتصادي من خلال تشجيع المبادلات التجارية بين دولته والدول الأوروبية وبلاد الأندلس والسودان الغربي.

✓ ج- أبو حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م): على الرغم من توليه حكم الدولة الزيانية في فترة حرجة تميزت بكثرة الحروب، إلا أنه لعب دورا بارزا في تطوير الحركة الفكرية والثقافية، فقرب إليه العلماء وأغدق عليهم الأموال وشيد المدرسة اليعقوبية نسبة إلى والده أبي يعقوب استقدم الفقيه العلامة أبو عبد الله الشريف التلمساني للتدريس بها، وقد صنف أبو حمو موسى الثاني كتابا في السياسة والآداب السلطانية سماه "واسطة السلوك في سياسة الملوك".

خلاصة: دخلت الدولة الزيانية مرحلة جديدة من تاريخها، بحيث كثرت التدخلات الخارجية في شؤونها الداخلية، ننتجه توقعها الجغرافي بين الدولتين الحفصية والمرينية التي تسعى كل واحدة منها التوسع على حساب الدولة الزيانية، وفي مطلع القرن 10هـ/16م ظهر خطر آخر تمثل في تعاظم القوى النصرانية الإسبانية وزحف المد الصليبي، خصوصا بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس سنة 897هـ/1492م، بحيث وجه الإسبانون نشاطهم لغزو بلدان المغرب الإسلامي، ونتيجة ذلك فقدت الدولة الزيانية المرسى الكبير سنة 911هـ/1505م ووهران سنة 914هـ/1509م وعنابة سنة 941هـ/1535م، ما اضطر أعيان مدينة الجزائر للاستعانة بالإخوة ببروس والإستنجاد بهم ضد الحملات الإسبانية، إلى غاية إلحاق الجزائر كإلية عثمانية سنة 924هـ/1519م.